أثر روّاد اللسانيات الأمريكية على نوام تشومسكي

د. نابي بوعلي
قسم العلوم الاجتماعية،
جامعة معسكر.

إذا كانت التحولات الكبرى للدرس اللساني قد دشنها العالم السويسري فرديناند دوسوسير FERDINAND de Saussure 1857-1913 في بداية القرن الماضي من خلال محاضراته في الألسنية العامة وما أحدثه من انقلاب معرفي ومنهجي في التناول العلمي والفلسفي للغة، فإن الاتجاهات الرئيسة للّسانيات المعاصرة بعد دوسوسير قد بدأت تتخطى تلك التدابير التي وضعها لها من خلال منهجه البنيوي ولم تبقى وفية له، وفي هذا الإطار سنتناول بالدراسة رواد اللّسانيات الأمريكية الذين كان لهم تأثيرا قويا ومباشرا على تكوين نوام تشومسكي الفلسفي والعلمي، والذي أسفر في النهاية عن ميلاد مدرسة النحوالتوليدي التي كانت منعطفا حاسما وجذريا في تاريخ اللسانيات.

وقبل الحديث عن تأثير عمالقة اللسانيات الأمريكية على تشومسكي – وهذا لا يعني أنه لم يتأثر بفلاسفة آخرين من أقطاب الفلسفة القديمة أوالحديثة – نود أن نقدم نبذة تاريخية عن حياته، فمن هوهذا اللّساني والفيلسوف؟.

أفرام نوام تشومسكي AVRAM Noam Chomsky من مواليد 07 ديسمبر1928 بمدينة فيلادليفيا بالولايات المتحدة الأمريكية، ينحدر من عائلة روسية ذات أصل يهودي، عمل مدرسا للفلسفة واللّسانيات والرياضيات بجامعة بنسلفانيا.

كان عمره لا يتجاوز 23 سنة عندما ظهرت مقالاته الأولى حول البنية المنطقية للّغة. تحصل على إجازة ماجستير في علم الفونيمات الصرفي للعبرية الحديثة. وفي عام 1955 عيّن أستاذا للّسانيات بمعهد ماساتشوستس Massa chusetts وهويشتغل به حتى يومنا هذا، إلا أن تشومسكي صار معروفا على الساحة الدولية بمواقفه وانتقاداته للسياسية الأمريكية، وتحليلاته الاقتصادية أكثر من دراساته اللغوية.

أولا: علاقة تشومسكي بالمدرسة السلوكية

من المعروف أنّ اللّسانيات كتيار معرفي تجمع عددا كبيرا من المدارس اللّغوية التي تشترك كلّها في موضوع واحد هودراسة اللّغة بغرض معرفة نظامها وكيفية اشتغالها لتمنحها شرعية علمية، غير أنها لا تتناول ذلك الموضوع وإشكالياته المختلفة والمعقدة بنفس المنظور والمفاهيم والآليات والمناهج. ولعل أهم النظريات اللغوية التي تصدرت الواجهة بعد محاضرات دوسوسير هي نظرية تشومسكي التي تكتسي دراستها أهمية كبيرة من حيث أن كل النظريات اللغوية المعاصرة قد تأثرت بها

بدرجات متفاوتة. ولأخذ فكرة واضحة عن نظريته اللغوية لابد أن نبحث عن الأسس التي انطلقت منها عند الروّاد الأوائل، الذين أرسوا قواعد اللّسانيات الأمريكية، والذين تركوا بصمات قوية على تفكير وتوجهات تشومسكي، وهم على التوالي: ادوارد سابير، ريونالد بلومفيد، وزيلغ هاريس.

من الناحية التاريخية ظهر قبل هؤلاء الرواد الثلاثة الانثروبولوجي فرانز بواز FRANZ Boas 1858- 1942 في القرن التاسع عشر، الذي كان يمثل الاتجاه البنيوي في أمريكا. وما يمكن ملاحظته أنّ البنيوية لم تكن حكرا على بواز، فلقد كان هنالك على الضفة الأخرى في أوروبا فلاسفة وعلماء من صناع الثورة المعرفية للسانيات تناولوا نفس الانشغالات اللّغوية بأصالة وعمق، من أمثال فيلهلم فون همبوليت (1776-1835) سواء من حيث النظرة القومية إلى اللغة وعلاقتها بالمجموعة التي تتكلمها، وأثر اللغة في نظرة الإنسان إلى العالم المحيط به وطريقة تفكيره وتأطير وعيه، أومن حيث النظرة العلمية إلى اللغة ومحاولة اكتشاف قوانينها من أجل ضبطها ضبطا علميا محكما، وقد شكلت أبحاث هومبوليت نظرا لأهميتها مرتكزا قويا لنظريات كل من سابير وتشومسكي على حد سواء. كما فرض إدوارد سابيير وريونالد بلومفيلد وجودهما في أمريكا في الفترة التي بدأت مع ميلاد الجمعية اللّسانية الأمريكية عام 1924، وأسهما بشكل كبير في تطوير الدرس اللساني والسير به أشواطا كبيرة نحوالعلمنة متأثرين بالنتائج المذهلة التي أحرزتها العلوم في كل المجالات.

ثانيا/ أثر إدوار سابير على تشومسكي.

من هوإدوار سابير Edward Sapir 1884- 1939؟.

لقد تخصص سابير في الفيلولوجيا في ظل المدرسة الألمانية، وتأثر ببواز عندما كان طالبا، والتقى به سنة 1904، فأعجب سابير بالمنهج اللّساني الأنثروبولوجي لبواز، وكان سابير يجمع بين عدة حقول معرفية كالأنثروبولوجيا واللّسانيات، وتجاوز نشاطه العلمي هذين الحقلين إلى مجالات الأدب والفن والموسيقى.

يعتقد سابير أنه من الصعب دراسة وفهم مظاهر النشاط اللّغوي بعيدا عن مظاهر السلوك البشري الأخرى، ولذلك ركّز على علم النفس وعلم الاجتماع وهوما يعكس توجيه اهتمامه إلى الجانب الاجتماعي والإنساني والثقافي للّغة. وفي هذا المجال يقول سابير:« إن للّغة بيئة ينتمي مستعملوها إلى جنس ما أوعدد من الأجناس، أوإلى مجموعة متميزة عن غيرها من المجموعات بعدد من الخصائص الفيزيائية. ثم إنه لا وجود للّغة خارج الثقافة أي خارج أنظمة الممارسات والمعتقدات الاجتماعية الموروثة التي تحدد نسيج حياتنا»(سابير، إ. 1997ج2 :125).

وقد نشر سابير عن مختلف نشاطه الفكري والعلمي مقالات عديدة إلا أنه لم ينشر إلا كتابا واحدا هواللّغة: Le Langage وذلك سنة 1921. فما هي أهداف هذا الكتاب؟.

يجيب سابير عن هذا التساؤل قائلا:« فالهدف الأساسي من وضع هذا الكتاب بيان مفهومي الشخصي للّغة وماهيتها ومدى تغيرها في المكان والزمان وعلاقتها بالمشاغل الإنسانية الجوهرية الأخرى مثل قضية التفكير وطبيعة التطور التاريخي والجنس والثقافة والفن»(سابير، إ، 1997، ج1:10).

وكان سابير يعتني كثيرا بدراسة الأشكال اللّغوية دراسة تحليلية دقيقة لمكوناتها دون أفكار مسبقة تجعل من هذه اللّغة أوتلك أفضل لغة وأرقى من حيث التنظيم والاكتمال، أومن حيث أقصى درجة يمكن أن تصل إليها اللّغة في التطور. كما دعا سابير إلى دراسة اللّغة دراسة تصنيفية تشبه إلى حدّ كبير عمل اللّسانيين البنيويين، رغم الصعوبات الكبيرة التي تواجه مثل هذا العمل كعدم اشتماله على كلّ اللّغات المعروفة، وخطر التعميم انطلاقا من عدد قليل من اللّغات المنتقاة بالإضافة إلى خطورة تلك النظرة المعيارية العنصرية ذات الطبيعة الإنسانية التي تقوم على تفضيل لغة على حساب لغة أخرى. وقد كان سابير على وعي تام بما تمثله هذه النظرة الثفاضلية بين اللغات من خطورة على مسار البحث العلمي الموضوعي النزيه، حيث يقول في هذا الصدد:« نعتبر من الآن أنّ كلّ تصنيف ينطلق من أفكار مسبقة أويرمي إلى قناعات عاطفية محكوم عليها بالشذوذ عن العلم...فاللّغة في أشكالها الأساسية تعبير علامي عن مشاعر الإنسان الحدسية التي يمكن أن تصاغ في العديد من الصور بقطع النظر عن درجة التقدم المادي للشعب الذي يستخدم تلك الأشكال أوتخلفه» (سابير، إ، 1997، ج2:10).

ولعلّ هذه الفكرة نجد مثلها عند تشومسكي الذي يرفض هوالأخر تفضيل لغة عن أخرى، وبمعنى معاصر يدعوإلى فكرة دمقرطة اللّغة، أي اعتبار كلّ اللّغات الإنسانية متساوية من حيث القيمة والأهمية ودرجات الاكتمال. وهذه الفكرة كانت لها تداعيات قوية حيث أصبحت بعض الأقليات تطالب بإقحام لغاتها كلغات معتمدة ورسمية حتى تظفر لها بسند قانوني أودستوري يحميها من الانقراض والتهميش وتخفيف حدة المواجهة والصراع الموجود بين اللغات، وقد تجلت تلك المطالب أحيانا في المطالبة بالاستقلال السياسي حسب الانتشار الجغرافي للغاتها واللهجات (Reland .B, 1978, P 63) أومن منظور اللّغة والجنس، ولكن هذا ليس قانونا عاما ينسحب على كل المجموعات البشرية، فنجد سويسرا مثلا تحظى مجموعاتها التي تتكلم أكثر من أربع لغات بقدر كبير من الوحدة والانسجام، فإرادة الوحدة والتوحد سبقت حالة التصدع والتفكك.

وإذا كانت اللغة تحمل بعدا إيديولوجيا يتعلق بالمجموعات المختلفة بفعل التعدد اللغوي الذي قد يشكل ميدان صراع حقيقي، فإنها تعكس اختلافات جوهرية تكوينية عند الفرد، ولذلك فالاختلافات بين اللّغات فيما يرى همبوليت لا تتوقف على أصوات الكلام المختلفة التي تستعملها تلك اللّغات، لأنها ليست مجرد وسيلة اتصال بين الناس، ولكنها تشتمل على اختلافات في تفسير المتكلمين وفي فهمهم للعالم الذي يعيشون فيه حتى سميت نظريته بنظرية رؤية العالم. يقول عبد الجليل مرتاض: «إن اللغة عند همبوليت أكثر من أداة اتصال، هي انعكاس للعقلية الإنسانية تماما مثل الفنون أوالعلوم، وقال بهذا الخصوص(أي همبوليت):إن اللغة هي التعبير عن الشكل الذي بموجبه يرى الفرد العالم ثم يحمله إلى داخل نفسه»(عبد الجليل، م،2002 :109).

والملاحظ كذلك أنّ سابير كان قد رفض التقسيم التقليدي لأقسام الكلام عندما درس اللّغات الهندية، وقال بأنّ هذه الأقسام ليست كليات لغوية بل إنّ لكلّ لغة أنماطها الخاصة، ويرى أنّ لكل لغة مميزاتها وأصواتها ومفرداتها التي تكفيها لتلبية حاجيات مستعمليها. ويترتب عن ذلك وجود تباين وفروق واضحة بين اللغات، لكن ذلك لا يعني أنّ إحداها بلغت الكمال والأخرى لغة لا تزال بدائية. وتعود هذه الفكرة إلى دراسة سابير لعلم اللغة المقارن القائم على مقارنة اللغات فيما بينها لاكتشاف عناصر القربى والتقارب الموجودة بين اللغات ومن ثمة تصنيفها في عائلات لغوية بحكم حالات التشابه والقرابة.

ولقد أسس سابير نظرية عرفت باسم - سابير وورف- حيث كانت هذه النظرية بداية البنيوية الأمريكية في اللّسانيات، ومحتوى نظريته أنّ العالم الذي يعيش فيه الإنسان هوقفص لغوي، حيث أنّ كلّ أشكال الفكر تتحدد من قبل اللّغة، بل إن اللغة هي الشرط الأساسي الذي لابد منه لرؤية العالم من حولنا، والمفتاح الذي يفتح لنا أقفال الكون، ومن ثم فالتنوع اللّغوي يترتب عنه تنوع في الثقافة والأفكار والمؤسسات الاجتماعية والعادات والتقاليد، مادامت اللغة تعكس تجربة الأفراد الذين يتكلمونها، يقول سابير:« إنّ الناس يعيشون تحت رحمة اللّغة التي أصبحت وسيلة للتعبير في مجتمعهم...وإنّ العالم الحقيقي مبني إلى حدّ كبير - وبدون وعي- على العادات اللّغوية للمجتمع»(أحمد، م، 2002: 190).

وفي مقال آخر، ذهب سابير إلى:« أنّ اللّغة لا ترجع إلى الخبرة المكتسبة في غالب الأحيان دون مساعدتها فحسب بل تتحدد خبرتنا أيضا بسبب اكتمالها الشكلي وتصورنا غير الواعي لتوقعاتها الضمنية داخل ميدان الخبرة... وأنّ هذه المقولات مثل العدد، والجنس، والحالة، والزمن لم تكتشف عن طريق الخبرة، بل فرضت عليها بسبب القبضة الاستبدادية التي يمارسها الشكل اللّغوي على توجهاتنا في العالم»(أحمد، م، 2002: 191).

وتعد هذه الفرضية فكرة محورية عند سابير، وإن لم يكن هوواضعها، لأننا نجد همبوليت قبله ذهب إلى نفس الفكرة في نظريته:« رؤية العالم » حيث ينظر الناس إلى العالم ضمن قنوات مختلفة ومتشعبة تشعب اللّغات الموجودة في هذا العالم، وبناء على ذلك، فإن كلّ لغة تضفي على العالم نظرة خاصة تنسجم مع وحدة التكوين العقلي والمحتوى النفسي لأصحابها الناطقين بها.

وعليه فإنّ نظرة الناس للعالم تختلف باختلاف اللّغة التي يتكلمون بها، وهوما يولد لديهم عادات فكرية وأطر تفكير مختلفة عن غيرهم من مستعملي اللغات الأخرى. وكان العرب قد تفطنوا إلى هذه الظاهرة التي تنطوي عليها اللغة. وعلى سبيل المثال حينما تناولوا المنطق الأرسطي بالدراسة اعتبروا المنطق الأرسطي نحويوناني، ويشهد على ذلك المناظرة الشهيرة التي جرت بين أبي سعيد السيرافي النحوي ومتى بن يونس المنطقي، إذ بعد ما سأل السيرافي، متى عن المنطق وما يعني به، وبعد أن بيّن له عجز المنطق على أن يكون وافيا بمعرفة صحيح الكلام من سقيمه وفاسد المعنى من صحيحه، وبيّن له أيضا أنّ المنطق وضعه رجل من اليونان على لغة أهلها واصطلاحهم عليها، ما يتعارفون بها من رسومها وصفاتها، فمن أين يلزم« الترك» و«الهند» و«الفرس» و«العرب » أن ينظروا فيه ويتخذوه قاضيا وحكما لهم وعليهم؟. وفي الأخير استنتج السيرافي أنّ متى كان يدعوه إلى تعلم اللّغة اليونانية وليس إلى تعلم علم المنطق (التوحيدي،أ، ج1، 1989: 108).

ومن هذا المنظور فإنّ اللغة هي بوابة الناس إلى العالم، كما أنهم ينظرون إليه بأعين اللّغة التي تشربوها، ولا يفهمونه إلاّ من خلالها، فالعالم واللغة سيان، وأن حدود معرفة العالم في حدود معرفة اللغة.

أما تلميذه « بنيامين ل. وورف BENJAMIN L.EEwhorf الذي كان منشغلا بدراسة الأنظمة الصرفية والنحوية للّغات الهندية الأمريكية، فقد ذهب إلى القول: «بأنّه لوكان رجال الهوبي Hopi هم الذين طوروا النظريات العلمية الموجودة اليوم، لكانت الفيزياء الحديثة مغايرة تماما لما هي عليه الآن ومنسجمة مع نفسها ومقنعة في آن واحد ». وانطلاقا من هذا، فقد رأى:« بأنّ فيزياء نيوتن قد حصل عليها جاهزة من لغته، ولكن النظر إلى الفيزياء التي طورها نيوتن على أنها معالجة دقيقة للفطرة السليمة تعدّ وهما مستخلصا من المرحلة الطويلة التي احتاجها قبول فيزياء نيوتن على أنها حقيقية»(أحمد، م، 2002 : 191).

وتسمى نظرية سابير وورف كذلك بالنظرية النسبية، نظرا لوجود اختلافات كبيرة في بنية اللّغات، وأنّ أشكال الفكر من منطق وعلوم وغيرها تحددها وتوجهها اللّغة بصورة حتمية. وبالإضافة إلى الفرضية السابقة التي استقاها سابير من التنوع الكبير الموجود بين اللّغات، فإنّه اهتم بدراسة اللّغة من جوانب أخرى مثل تحديده

لمفهوم الشكل في مقابل المادة الصوتية، الذي يشبه إلى حدّ كبير تقسيم دوسوسير الثنائي للّغة والكلام. وما دام الشكل هوالذي له الأولوية في الدراسة الوصفية لما يتميز به من علاقات، فإنه قد أبعد الوظيفة التي ترتبط بالأشكال اللّغوية.

وإلى جانب مفهوم الشكل، فقد انتبه إلى مبدأ التصنيف، الذي أصبح مبدأ محوريا في اللّسانيات التوزيعية مع هاريس بعد ذلك. حيث حصر التوزيعيون الدرس اللّساني في الوصف والتصنيف دون الاهتمام بالتفسير. ومن هذه النقطة بالذات بدأ تشومسكي هجومه على اللسانيات البنيوية، على اعتبار أن منهجها هذا لا يختلف عن المناهج التقليدية التصنيفية، وبهذا كانت نقطة توقف البنيويين هي نقطة انطلاق تشومسكي.

لقد اهتم سابير كذلك بدراسة الفونيم، حيث كان على دراية كبيرة بأهم مكونات الفونيم، لا سيما الجانب النفسي، فهويرى أنّ للمتكلّم شعورا بفونيمات لغته، إذ يحدسها حدسا مباشرا. وعلى كلّ حال فإنّ سابير يعد رجل علم من الرعيل الأول، الذين أرسوا قواعد الدراسة اللّسانية الأمريكية، ومن الضروري أن تترك أفكاره بصمات قوية على تفكير تشومسكي فيما بعد.

يقول أحمد مومن:« إنّ سابير قد أسهم إسهاما كبيرا في إرساء أصول اللّسانيات الوصفية في أمريكا. ويبدوا أنّ نظرته إلى اللّغة وعلاقتها الوطيدة بالحياة عامة وبالفكر خاصة، ترجع أساسا إلى تأثره بأفكار العالم اللّغوي الألماني همبوليت ونظرا للمكانة العلمية التي بلغها سابير، فإنّ كثيرا من أرائه تبنّاها تشومسكي فيما بعد»(أحمد مومن، اللسانيات النشأة والتطور، مصدر: 192).

ثالثا/أثر ريونالد بلومفيلد على تشومسكي

من هوريونالد بلومفيلد.1887- 1949 REONALD Bloomfield؟.

يعد ريونالد بلومفيلد من كبار اللّسانيين الأمريكيين، ولد عام 1887 بمدينة شيكاغو، والتحق بجامعة هارفارد عام 1903، حيث حصل على الماجستير سنة 1906، وعلى درجة الدكتوراه عام 1909 من جامعة شيكاغو. رحل إلى أوربا لمتابعة محاضرات في اللّسانيات. غير أنه لم يترك إلاّ كتابا واحدا هواللغة، الذي أعاد مراجعته بعد أن كان يحمل عنوان مدخل إلى دراسة اللّغة عام 1914. ويعد بلومفيلد ممثلا للبنيوية السلوكية، إذ كان المذهب السلوكي آنذاك يمرّ بأقصى مراحل تطوره في الولايات المتحدة الأمريكية. توفي عام 1949إثر إصابته بمرض الشلل لعدة سنوات.

وعلى الرّغم من المنزلة التي كان يحتلها كلّ من بواز وسابير باعتبارهما رائدين من روّاد اللّسانيات الأمريكية، إلا أنّ بلومفيلد يحتل منزلة جدّ مرموقة بوصفه الممثل الأول للّسانيات الأمريكية. يقول الطيب دبة:« أحتل بلومفيلد منزلة جدّ مرموقة في اللّسانيات الأمريكية بفضل ما قدّمه، في هذا الكتاب(أي كتاب اللغة) خصوصا في

طبعته المنقحة، من مفاهيم وتصورات لسانية جديدة ساهمت في تأسيس المنهج البنيوي الأمريكي، وحدد معالمه المنهجية المتميزة ضمن مسار يختلف عن المسار الذي اتخذه سابير للّسانيات. ذلك أنّ بلومفيلد لم يعتمد في دراساته على الأسس الذهنية والنفسية رغم أنّه مثل مبادئها وكان أحد أنصارها والمتأثرين بروّادها حينما أصدر كتابه في طبعته الأولى (1914) مؤسسا مضامينه على الدراسة النفسية لولهلم فون همبوليت»(الطيب، د، 2001 :145).

لقد اعتنى بلومفيلد باللّسانيات الوصفية والبنيوية، وسعى من خلال كتابه اللّغة Le langage إلى جعل البحث اللّساني بحثا علميا صرفا، على غرار بقية العلوم الوصفية الأخرى. ومن ثمّ انتقد الدراسات اللغوية السابقة، لأنها دراسات غير علمية تمتزج بالاعتبارات الفلسفية المعيارية، بينما دراسة اللّغة يجب أن تكون وصفية قائمة على مناهج تجريبية استقرائية موضوعية.

ومن أجل بلوغ هذه الغاية حدد مجموعة من الضوابط والتدابير لمجال بحث اللّغة، وعزل بعض القضايا الأخرى التي رأى أنها لا تدخل ضمن البحث اللّغوي، إمّا لصعوبتها، أولأنّ الوسائل المتاحة في ذلك الوقت لا تسمح بدراستها دراسة علمية. وما دام الأمر كذلك، كان من الضروري إرجائها لوقت لاحق، ريثما تسمح الظروف بإقحامها في مجال البحث أللساني، لأنّ تلك القضايا لا تدخل في إطار العلم الوضعي القابل للملاحظة والضبط والقياس، كما تفتقر إلى روح الموضوعية، كخاصية أساسية، وسمة رئيسة مميزة للعلم.

نظر سابير إلى اللّغة نظرة إنسانية، مؤكدا على أهميتها الثقافية حيث تلعب دورا هاما في بناء وتوجيه التراكم الحضاري بين الأجيال، باعتبارها وسيلة نقل التراث والأفكار والانفعالات والمعارف التي تعبر عن روح الأمة، وفي الوقت نفسه فإن اللّغة هي من نتاج الجماعة التي تتكلمها، وبذلك يصعب فصل تلك الجدلية المتقايضة التأثير والتأثر بين اللغة والأمة إلى درجة اعتبار اللغة روح الأمة. كما أكد سابير من جهة أخرى على أنّ العقل يسبق الفعل الإرادي والأحاسيس، وبين السمة الإدراكية للّغة باعتبار الكلام ظاهرة خاصة بالإنسان وليس شيئا غريزيا أوآليا كما يظن البعض.

غير أنّ بلومفيلد وتحت تأثير منزع المذهب السلوكي الذي يتزعمه واطسن WATSON مؤسس المذهب السلوكي في علم النفس، وهوالمذهب الذي ترجع بذوره الأولى إلى دراسات العالم الروسي بافلوف PAVLOV الذي كان يحاول ضبط آليات التعلم بواسطة المنعكسات الشرطية على الحيوانات من خلال المثير والاستجابة، فأعجب واطسن بأبحاث بافلوف وراح يفسر كل النشاط الإنساني ضمن إطار المثير والاستجابة.

يقول أحمد مومن:« أطلق بلومفيلد على المنهج الذي اتبعه في دراسة اللّغة اسم المنهج المادي أوالآلي وهوالذي يفسر السلوك البشري في حدود المثير والاستجابة على غرار ما تقوم به العلوم الفيزيائية والكيماوية في اعتمادهما في تفسير الظواهر على تتابعات العلّة والأثر. وقد رفض المنهج الذهني الذي كان متداولا في عصره على أساس أنه لا يعتمد في تفسير الظواهر على المبادئ العلمية التجريبية، بل يرجع السلوك البشري إلى عوامل غير فيزيائية كالروح، والعقل والإرادة التي تعدّ غير قابلة للملاحظة والوصف العلميين، ولذلك لا يمكن التنبؤ بالسلوك البشري بما في ذلك الحدث الكلامي»(أحمد، م، 2002 :193- 194).

ما يمكن استخلاصه من هذه الفقرة السابقة، هوأنّ بلومفيلد كان يعني بمصطلح العلم رفض كلّ المعطيات التي لا تسحب عليها الملاحظة العلمية المباشرة، ولا تخضع لأساليب الدقة والقياس. وهوبذلك يسير في نفس المنحى الذي سار فيه واطسن وأتباع المدرسة السلوكية. حيث كان يرى واطسن، أنه قد حان الوقت على علماء النفس أن يحيلوا علم النفس علما طبيعيا أويتركونه جانبا، وعليهم أن يقطعوا الصلة بالشعور، أوبكل ما يمتّ إلى الشعور بالصلة، لأنّ من يقول به كمن يقول بالروح قوة ميتافيزيقية لا يمكن القبض عليها أوإخضاعها للدراسة العلمية، وبالتالي فإنّ علماء النفس من المنظور السلوكي هم في غنى عمّا سمّي تقليديا بالذهنية لشرح أوتفسير نشاطات الإنسان، بل يمكن وصف سلوك أي عضومن الأعضاء ابتداء من أصغر حيوان، إلى الإنسان على أنه مجرّد رد فعل على مثيرات آتية من البيئة التي يعيش فيها الكائن الحي. ولا شكّ أن اللّغة ما هي إلاّ شكلا من أشكال السلوك القابل للملاحظة والدراسة العلمية المباشرة. وحتى التفكير هونوع من الكلام الصامت كما يقول واطسن، ويسمع هذا الكلام عندما نحتاج إليه، وبالتالي فإنّ تفسير ظاهرة اللّغة عند بلومفيلد لا بدّ أن تمرّ عبر المنهج التجريبي من أجل جعل التحليل اللغوي علميا قدر الإمكان، وترفض كلّ تفسير تجريدي لا ينسجم مع مقتضيات البحث العلمي. حيث وجد بلومفيلد في المنهج السلوكي أهم المبادئ التي تجعل إمكانية دراسة اللّغة دراسة علمية مستقلّة. وهذا هوالهاجس الذي كان يشغل علماء اللّسانيات من قبل.

إنّ اللّغة حسب التصور البلومفيلدي، ما هي إلاّ نتاج مباشر بين مثير معين واستجابة كلامية. وهكذا تصور أنّ كل الظواهر اللّغوية، باعتبارها ظواهر سلوكية تتحل في نهاية المطاف إلى مثيرات واستجابات يمكن التعبير عنها في صورة معادلات رياضية، بل يمكننا التنبؤ بردود الأفعال، إذا كان في إمكاننا معرفة المثيرات بصورة قبلية. حيث يتصور بلومفيلد أنه على الرغم من أننا نستطيع مبدئيا أن نتنبأ إذا ما كان مثير معين يمكن أن يدفع شخصا ما إلى أن يتكلم، أوحتى إلى ما

سيقوله بالضبط، ففي الواقع، أنه لا يمكن أن نتنبأ إلا إذا عرفنا البنية الدقيقة لجسمه في تلك اللّحظة.

لقد قلنا سابقا أنّ بلومفيلد تبنى أفكار المدرسة السلوكية بشكل واضح، وأعجب بمنطقها العلمي الصارم، بوصفه الإطار الملائم لكل دراسة وصفية لسانية. واعتبر أنّ المعنى المتضمن في كلّ شكل لساني هوعبارة عن سلسلة من الحوادث العملية والتطبيقية الداخلية في علاقة مع هذا الشكل. ولبلومفيلد مثال يوضح فيه أساس نظريته من خلال سرد القصة المشهورة عن(جيل وجاك) التي تمثل الحدث الكلامي، ويمثلها كما يلي:

1- كان (جاك) و(جيل) يسيران في إحدى الحدائق، فلمحت (جيل) تفاحة على إحدى الأشجار فتولّد لديها الشعور بالجوع والرّغبة في أكل تفاحة.

2- ولما كانت تشعر بالجوع، وترغب في أكل تفاحة، فلقد طلبت من (جاك) أن يأتيها بها من على الشجرة. وذلك من خلال الكلمات والأصوات التي أصدرتها.

3- يستجيب (جاك) ويصعد إلى الشجرة ويقطف التفاحة.ثم أعطاها لـ (جيل) فأكلتها.

إنّ أحداث هذه القصة التي تبدوعادية، تثير عدة انشغالات واهتمامات لدى الباحث اللّساني، ترتبط بالظاهرة اللغوية. إلاّ أنّ المدرسة السلوكية التي لا تهتم بالعمليات النفسية الكامنة وراء اللغة، تعمد إلى وصف الحدث الكلامي والتصرف السلوكي بالشكل التالي:ففي رأي بلومفيد أنّ الجوع عند (جيل) يعني أنّ بعض عضلاتها كانت تتقلص وأن بعض السوائل كانت تفرز على مستوى المعدّة، وأنّ رؤيتها للتفاحة يعني أن موجات ضوئية انعكست من التفاحة على عينيها، فالشعور بالجوع ورؤية التفاحة يمثلان المثير (S) أما الاستجابة المباشرة للمثير تحتم على (جيل) أن تذهب إلى الشجرة بنفسها لقطف التفاحة(R)، ولكنها بدلا من ذلك تقوم باستجابة بديلة (r) على شكل متوالية خاصة من الأصوات بأعضائها الصوتية، وهذه الأصوات تقوم بدور المثير البديل (S) بالنسبة لـ (جاك) الذي اندفع نحوالشجرة كما لوكان هوالجائع الذي رأى التفاحة(Bloomfield, R.1970P30).

وقد قام بلومفيلد بتحليل هذه القصة على الشكل التالي:

1- أحداث عملية سابقة للحدث الكلامي.

2- الحدث الكلامي.

3- أحداث عملية لاحقة للحدث الكلامي.

ويمكن تمثيل هذه العمليات التواصلية للقصة المذكورة سابقا على النحوالتالي:

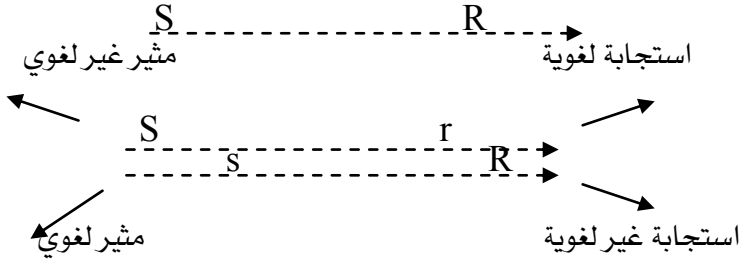

إنّ الخطوط المتقطعة في هذا الشكل تمثل الحدث الكلامي الذي يملأ الفراغ بين جسمي المتكلم والسامع، وإنّ المثير(S) يعادل الأحداث العملية السابقة للحدث الكلامي وإن الاستجابة (R) تعادل الأحداث العملية التابعة للحدث الكلامي. ويدل الحرف (r) على الاستجابة البديلة والحرف (s) على المثير البديل.

إنّ هذه القصة التي جاء بها بلومفيلد تعطي فكرة عن الشكل الذي يعمل به الكلام ضمن سياقه التطبيقي، لأنّ الكلام حسب بلومفيلد ليست له قيمة في ذاته، وإنما قيمته الكبرى تكمن في أنّ له معنى، وهذا المعنى يشتمل على الأشياء الهامة التي يرتبط بها الكلام وخاصة الأحداث العملية.

ولقد كان بلومفيلد متشددا جدا في إبعاد كلّ المعطيات غير اللّغوية في دراسة اللّغة، وذلك تماشيا مع الإطار المنهجي العلمي الذي رسمته المدرسة السلوكية، ومن قبلها الفلسفة الوضعية بصورة عامة. وكان من نتائج ذلك التشدد والصرامة المفرطة لتحقيق العلمية، إقصاء المعنى من الدراسة واعتباره خارج إطار الدرس اللّساني. حيث يرى بلومفيلد :« أنّ التحليل الدلالي لا يمكن أن يطمع للوصول لأية حالة للدقة العلمية المتاحة للتحليل الشكلي للمادة اللّغوية كما تلاحظ وتسجل» وأنّ:« التطور الحالي للمعرفة الإنسانية غير كاف لتحقيق هذه الغاية»(الطيب، د، 2001 : 149).

ومما لاشك فيه، هوأن ذلك التبسيط لتفسير الظاهرة اللغوية الذي وقع فيه بلومفيلد، سوف يجعله يسلك سلوكا متطرفا، وبالتالي يعرض عن التنظير للمعنى والعمل به. وفي هذا المجال يقول الطيب دبه:« إنّ من أبرز ما تسفر عنه قراءة النظرية اللّسانية لبلومفيلد هوتنكره، بشكل واضح، للمعنى، ويتجلّى ذلك خصوصا في تجنّبه لأن يخوض في الحافز النفسي الداخلي للعملية اللّغوية ولكل ما يمكنه أن يتصل به كالأفكار والصور والأحاسيس باعتبارها لا تخضع للملاحظة المباشرة والحساب الموضوعي الدقيق بل تساعد على تعطيل النتيجة العملية وتشويشها، ولذلك استبعدها بلومفيلد من التحليل»(الطيب، د، 2001 :148).

ونتيجة لهذا الموقف الذي اتخذه بلومفيلد من دراسة المعنى، فقد عزف اللّسانيون عن دراسته بدورهم وأهملوه نهائيا، ويتجلّى ذلك بشكل واضح في أبحاث المدرسة السلوكية التي رأت أنّ المعنى كبحث لا يدخل ضمن اهتمامات الدرس اللّساني. وهذا الموقف السلبي من المعنى أدّى في الحقيقة إلى إحباط عزيمة اللّسانيين للبحث في هذا المجال، وهوموقف مضر بتقدم الدراسات اللّسانية، وهوما جعل أيضا الدرس اللّساني عندهم ينحصر في مجالي الفونولوجيا والنحو.

ففي مجال الفونولوجيا يرى بلومفيلد أنّ الفونيمات تنتظم في متوالية الكلام من خلال التقابل بطريقة شكلية توزيعية لا علاقة لها بالجانب النفسي. أما في مجال النحوفقد توصل بلومفيلد إلى مبدأ التحليل إلى المكونات المباشرة، ويقوم هذا المبدأ

السالف الذكر على تحليل الوحدات اللّغوية من أجل الكشف عن البناء الصوري للجملة. ولقد استمرّ هذا الاتجاه الذي رسمه بلومفيلد على يد تلامذته حتى وصل قمته مع هاريس HARRISS, وحتى عند تشومسكي الذي أخذ عنه مبدأ التحليل إلى المكونات المباشرة واعتبره مبدأ منهجيا مهما، وتأثر به تأثرا قويا، وإن كان قد أكتشف بعض نقائصه وحاول تطويره بإدخال مفهوم جديد هومفهوم التحويل الذي أحدث ثورة كبيرة في عالم اللّسانيات.

ويلخص أحمد مومن مساهمات بلومفيلد ومدى تأثيره وهيمنته على اللّسانيات الأمريكية بقوله:«إنّ كتاب بلومفيلد(اللّغة) بقي مرجعا أساسيا بعد أكثر من ثلاثين سنة من ظهوره، وإنّ تفسير بلومفيلد للّسانيات قد هيمن على موقف معظم اللّسانيين الأمريكيين من 1933 م حتى 1957م. وإنّ جلّ العمل الذي أنجز في هذه السنوات عدّه القائمون به مجرد شرح أوتطوير للأفكار التي أتى بها بلومفيلد وخير دليل على هذا أنّ هذه المرحلة أصبحت تعرف في تاريخ اللّسانيات بالعهد البلومفيلدي» (أحمد م، 2002 :196- 197).

وإذا كنا قد أشرنا فيما سبق إلى نقاط تقاطع بين بلومفيلد وتشومسكي، فإن ذلك لا يعني، أنّ تشومسكي قد سار على درب من سبقه من اللّسانيين، فهوقد أخذ نقاط قوّتهم وانتقد نقاط ضعفهم. ومن أبرز الجوانب التي انتقدهم فيها - أقصد اللّسانيين التوزيعيين والبنيويين - هواقتصارهم على الوصف والتصنيف بالنظر إلى اللغة على أنها حالة قارة، وإهمالهم لدور المتكلم الذي يبدع لغته في كلّ لحظة يتكلم فيها. وخلاصة القول، يعتبر بلومفيلد الرجل الأول في قائمة المدرسة الوصفية الأمريكية.

رابعا/أثر زيليغ هاريس على تشومسكي

من هوزيليغ ها ريسZELLIG Harris ؟.

زيليغ هاريس من مواليد سنة 1909 م في روسيا، ورحل إلى أمريكا في سن مبكرة، زاول دراسته الجامعية في جامعة بنسلفانيا، ودرّس بجامعة فيلاديفيا وبنسلفانيا. نشر كتابه المشهور :مناهج اللسانيات البنوية عام 1951م، حيث جمع فيه كلّ ما يتعلق بالبنيوية الأمريكية، لا سيما المنهجية الشكلية للّسانيات. واعتبرت دراسات هاريس أدق ما يمكن أن يستخدم لما سماه تشومسكي بالطرق الكشفية للوصف اللّساني.

من خلال تتبعنا لتاريخ اللسانيات الأمريكية عثرنا على إسهامات كبيرة من قبل اللّسانيين الأمريكيين لإبداع المناهج العلمية لدراسة اللّغة. ولكن لأغراض مختلفة. ورأينا أنّ الاتجاه الوصفي قد سيطر على تلك الدراسات بزعامة بلومفيلد وبلغ ذروته مع تلميذه هاريس، الذي صاغ نظرية تدعى بالنظرية التوزيعية.فما هي أهم الفرضيات

والمبادئ التي قامت عليها هذه النظرية ؟ وما هي الإضافات والمفاهيم الجديدة التي جاءت بها ؟ وما هي أخيرا تداعياتها وامتداداتها وأبعادها الفكرية على تشومسكي ؟.

يلاحظ بعض الباحثين أنّ النظرية التوزيعية لهاريس ما هي إلاّ امتدادا للجيل البلومفيلدي الثاني، ولكن هاريس حاد فيما بعد عن فكرة التحليل التوزيعي واتجه إلى فكرة التحويل. ويصف الطيب دبه هذا الانعطاف بقوله: « تقوم النظرية اللّسانية لهاريس، أساسا، على إضافات أدخلها على ما جاء به من سبقه من اللّسانين خاصة أستاذه بلومفيلد، ولذا فإنها لم تكن بدءا جديدا وإنما هي امتداد لبعض المفاهيم والمبادئ التي جاءت بها لسانيات بلومفيلد مثل: مبدأ التحليل إلى مكونات قريبة، ومبدأ الدراسة العلمية القائمة على الوصف والتصنيف، ومبدأ إقصاء المعنى من التحليل، وغيرها مما أضاف عليه هاريس وصاغه صياغة نظرية متكاملة سميت بالنظرية التوزيعية ونسبت إليه»(الطيب، د، 2001: 152).

وللإجابة عن التساؤلات التي طرحناها سابقا حول أهم المرتكزات التي قامت عليها نظرية هاريس والأهداف التي كانت تسعى إليها وتروم تحقيقها، فإننا نعتقد أنّ أهم ما تتميز به النظرية التوزيعية هوسعيها إلى وصف الوحدات اللّسانية وتحديدها في لغة ما، وتصنيفها في شكل فئات نحوية، وهذا بالاعتماد على الذخيرة اللّغوية للّغة قيد الدراسة.

ولقد شدد هاريس على ضرورة الالتزام بالمنهج العلمي، وانتقد منهج الدراسة الذهنية التي تستعمل مصطلحات فلسفية يصعب إخضاعها لشروط المنهج العلمي، واستبعد هوالأخر مثل بلومفيلد المعنى من الدراسة العلمية تماشيا مع روح المنهج العلمي، ومتطلبات الدراسة الوصفية، وذلك سعيا لتحقيق الموضوعية، بالرغم من الصعوبات التي تترتب على هذا الالتزام المفرط في التمسك بالتحليل المنهجي الصارم وتغييب روح الخطاب ودلالاته اللامتناهية.

ويضيف الطيب دبه في معرض حديثه عن محتوى النظرية التوزيعية لهاريس قائلا :« إنّ النظرية التوزيعية تمثل مرحلة هامة من مراحل الدراسة البنوية في علم اللسان، وقد شكلت هذه المرحلة منعطفا حاسما في المسار التاريخي والأساس الإبستمولوجي للسانيات البنوية بشكل عام، فهي تدل - من جهة- على بلوغ النظرية التوزيعية مستوى من النضج لم تبلغه اللّسانيات البنيوية الأوربية باستثناء جهود الجلوسيمية وجهود اللساني الوظيفي تينيير.... وذلك بإدخالها في التحليل، مستوى الوحدات غير الظاهرة فيما لم تكتف بدراسة الوحدات القطعية التي لا تتجاوز حدود الطبيعة الخطية في الجملة. ومن جهة ثانية تشير هذه المرحلة إلى أنّ التوزيعية كانت تمثل أحد الأسس المنهجية الهامة التي انطلق منها الدرس اللّساني الأمريكي اللاحق وذلك بفضل ما قدمه مؤسسها زيليغ هاريس من مبادئ ومفاهيم قرأها نوام

تشومسكي وأجاد استثمارها وأضاف إليها ما مكنه من بناء النظرية التوليدية والتحويلية تلك النظرية التي كانت بمثابة ثورة على منهج اللّسانيات البنوية من داخله داعية إلى توجه لساني بنوي جديد احتل، ولا يزال، يحتل مكانة مرموقة متصدرا أعلى الواجهات وحائزا على أبرز الاهتمامات في أوساط الباحثين المتخصصين في الدراسات اللّسانية الحديثة»(الطيب، د، 2001: 155- 156).

لقد كان هاريس أكثر اللسانيين الأمريكيين تأثيرا على تشومسكي، وهذا باعتراف تشومسكي نفسه، وهذا ليس غريبا لأن هذا الاخير كان لهاريس ومساعدا له، ، ولم يقتصر مجال التأثير على جانب الأبحاث والدراسات اللغوية فقط، بل امتد ذلك إلى مجالات أخرى، فقد كان تشومسكي يشاطر هاريس حتى في أفكاره السياسية أيضا.

وإذا كانت بوادر التفكير عند تشومسكي في بداية حياته ما هي إلا صدى لأفكار ودراسات هاريس، حتى أن بعض الباحثين قالوا بأن تشومسكي لم ينفصل عن أستاذه في تلك المرحلة الأولى. غير أن ملامح الانفصال قد بدأت مع صدور كتاب تشومسكي الأول البنى النحوية عام 1957، ومنذ ذلك الحين بدأ التحول يظهر حيث ابتعد تشومسكي عن أفكار هاريس والمدرسة السلوكية. ولاحظ أنّ اللّسانيات التوزيعية كانت ضحية منهجها الذي لا يعترف بالقدرة الإبداعية للّغة، وهوما فتح عليها أبواب النقد بسبب تجاهلها لتلك القدرة الإبداعية الكامنة في اللغة والتي تتجلى من خلال الاستعمال العجيب للناطقين باللغة، ففي نظر تشومسكي لا يمكن النظر إلى اللّغة على أنها مجموعة من الألفاظ المحدودة أوغير المحدودة، ولكن اللّغة هي أيضا معرفة المتكلم المستمع بهذه اللّغة، وهذه المعرفة الضمنية حسبه هي التي تسمح بمعرفة الجمل الغامضة، وتمييز التراكيب اللغوية السليمة وغير السليمة، وهذه المعرفة تتعلق باللّغة الأم.

وهكذا يمكن القول أنّ المفاهيم والمبادئ الأولية للنظرية التوليدية قد نشأت في رحم النظرية التوزيعية لهاريس، هذه النظرية التي شكلت مرحلة مهمة من مراحل تطور الدراسات اللسانية. فلقد استفاد تشومسكي من مفهوم التحويل وقواعده، كما طور فكرة الجملة النواة والتركيب المحول، ومفهوم قدرة المتكلم على حدس الخطأ والصواب في التراكيب اللّغوية.

والجدير بالذكر ها هنا، فإن هاريس أشار إلى وجود تشابه بين اللّغات الإنسانية، وإن كان ليس هواللساني الوحيد الذي انتبه إلى وجود مثل هذا التماثل بين اللغات، وهي الفكرة التي تحاول تبرير القول بوجود أصل واحد للغات مهما اختلفت وتشعبت وتباعدت، وفي هذا الصدد يقول أحمد مومن:« أكد هاريس أنّ ثمة تشابها كبيرا بين اللّغات على مستوى الجمل النواة واختلافا نسبيا على مستوى الجمل المحولة.

وباختصار شديد، لقد ظلت أبحاث هاريس في المجال التحويلي غير معروفة كثيرا من قبل جمهور القراء، ويعود هذا إلى ظهور القواعد التوليدية التحويلية لتشومسكي التي أحدثت ثورة في حقل اللسانيات واستقطبت اهتمام كل الباحثين من اللسانيين وغيرهم»(أحمد، م، 2002: 200- 201).

وفي الأخير، إذا كان تشومسكي قد تكون ضمن تقاليد المدرسة السلوكية والجو البلومفيلدي، لأنّ الكثير من مواقفه تدل على ذلك، وحقق مشروعه التقني في اللّسانيات بفضل الجهود التي بذلها قبله عدد من اللّسانيين، وخاصة هاريس، فإنه - وتجنبا لسوء الفهم - ينبغي ألاّ نعتقد أنّ أفكار تشومسكي ترجع كلها إلى الأطر القديمة، بل إنّ في الأمر توسيعا حقيقيا أفضى بها إلى التوجه نحو التركيز على مستويات اكتساب القدرات اللّغوية والاستعدادات الفطرية الكامنة في العقل البشري، ومحاولة تفسير جانب الإنتاج اللّغوي بالنظر إلى اللّغة كطاقة حيوية وقوة فعالة، وخلق مستمر، ونظام منفتح غير مغلق بطبيعته، وآلية توليدية متحركة ومتجددة، وعلاقتها بالذكاء والإبداع البشري في مختلف مجالات الحياة، وهذا عكس العلماء الذين تعاملوا مع اللّغة باعتبارها حالة ساكنة قارة دون النظر إلى المتكلم، وما يتولد معه من الخصائص اللّغوية، والتراكيب الجديدة، والإلتواءات الفكرية، والتعبير الرمزي الذي يشكل منجما لا ينضب للفكر اللساني والفلسفي، وكذا الأبحاث اللغوية بصورة عامة.

خامسا/تشومسكي: بداية وصفية ونهاية معيارية

يؤكد تشومسكي على ضرورة التعمق أكثر في دراسة اللغة والعقل لاستخلاص بنية النحو الكلي الذي يتحكم في جميع اللغات البشرية، وهذا بغرض اكتشاف القدرة المجردة والتنظيم المحرك الذي يتحكم في السلوك اللغوي البشري ويوجهه، لأنه لا وجود للغة خارج إطار تصورها العقلي، ومن هنا وجه جهوده لتسليط الضوء على عدة جبهات لسبر أغوار اللغة من زوايا نفسية وعقلية لاكتشاف الفاعلية التي تتحكم في تلك القدرة اللغوية الهائلة التي يتمتع بها الجنس البشري، والتي لم تفسر إلى حد الآن رغم تراكم الأبحاث وكثرتها.

إن هدف تشومسكي هو الانتقال باللغة من التحليل العلمي إلى التأمل النفسي والفلسفي، لينخرط في إشكاليات هي بالأساس تنتمي إلى الحقل الفلسفي بامتياز، على الرغم من أن تشومسكي يقدم نفسه دائما بوصفه عالما وليس بوصفه فيلسوفا، غير أن المتتبع لنظريته يدرك أنه أعاد إثارة قضايا فلسفية غاية في العمق والأصالة هي التي جعلت المهتمين يولون نظريته قدرا كبيرا من الاهتمام، ومن جملة القضايا التي أثارها في هذا المجال مسألة القدرة الإبداعية للغة. لقد أدرك تشومسكي أنّ اللسانيات البنيوية، التي كانت تسعى إلى دراسة اللغة دراسة علمية على غرار العلوم الدقيقة، قد

اصطدمت بصعوبات معرفية ومنهجية وابستيمولوجية أدخلتها في أزمة حقيقية بسبب تمسكها بالمبادئ التي قامت عليها والتي لم تعد كافية لمواكبة الإشكاليات المطروحة في الحقل اللساني، والتي لم يكن من الممكن تجاوزها. ولذلك وصف تشومسكي اللسانيات البنيوية بالتصنيفية، ورأى أنّ هدف النظرية اللّغوية ليس فقط الوصف وإنما التفسير، وبتعبير أدق ضرورة تجاوز المنهجية الوصفية إلى المنهجية التنظيرية. وهذا يدل على أن الخلاف بينهما قد صار خلافا منهجيا بالأساس، ولذلك فإنّ اللسانيات ستخسر الكثير إن هي أوكلت شؤونها إلى منطق الوصف والتصنيف، من دون الاهتمام بخصائص اللغة من حيث هي قدرة وملكة إنسانية تختلف كثيرا عن ألأنماط الغريزية لأشكال التواصل الحيواني الآلية والمحدودة التي تلبي حاجيات بيولوجية فقط، وهذا ما دفع تشومسكي إلى اعتبار اللسانيات جزءا من علم النّفس المعرفي. وتتجلى القدرة الإبداعية للغة أثناء استعمال الفرد العادي للغته في كلّ لحظة يتكلم فيها، وهوما يعطي الانطباع بأن اللغة متجددة دوما، وهوما يدل أن دور المتكلم ليس دورا ثانويا كما يعتقد سيكنر. يقول مشال زكرياء: « يهتم سيكنر بالمثيرات وبالإستجابات للمثيرات وبالعلاقات التي تربط استجابات معينة بمثيرات معينة. ولا يبدي بالتالي أي اهتمام بإسهام المتكلم في عملية التكلم، معتبرا أنّ هذا الإسهام غير جدير بالاهتمام»(زكرياء، م، 1993: 74).

إن اللسانيات البنيوية لا ترى في اللّغة، إلاّ قوالب جسدية خالية من الرّوح، تخضع الإنسان لإرغامات حتمية تزج به في إطار كون متناهي، كما لا تلتفت إلى ذلك الجانب الخلاق والقدرة الإبداعية للّغة التي يكشف عنها جوهر النشاط الإنساني المتميز بالحركة والتنوع والتجديد، حيث لا يمكن احتواءه أووضعه ضمن القبضة الحديدية للتصور البنيوى للغة، فاللغة والفكر من هذا المنظور لا تحتويهما الحدود والفواصل وقد تطورا جنبا إلى جنب تاريخيا، ومن هنا بدأ تشومسكي التفكير في تجاوز المفاهيم البنيوية وعقيدتها الفلسفية، نحوالتساؤل عن القدرة الإبداعية العجيبة للّغة، وفي هذا الصدد يقول الأستاذ عبد الرّحمن الحاج صالح :« لقد تناست وتجاهلت المدارس البنيوية جانبا هاما من الدراسة وهي الظواهر المتعلقة بالقدرة التي منحت للإنسان على الكلام للدلالة على أي غرض كان وبالتالي على كيفية إحداثه له وللعبارات المختلفةّ اللاّمتناهية بالمتناهي من الوحدات، كما تناست من ثم أنّ النّظام الباطني للسان لا يمكن أن تعرف أسراره بعملية وصفية مجرّدة فقط، فإنّ هذا من قبيل التشخيص والتصنيف لا غير، فلابدّ من أن يتجاوز اللغوي الوصف والتصنيف إلى ما هوأهم من ذلك وهوبناء لمثل الأنماط الصورية التي يفرغ المتكلم بها عبارات دون شعور منه »(حاج صالح، ع، سنة 1972).

لقد ركز تشومسكي على الجانب الإبداعي للغة، من خلال قدرتها على التعبير عن الأفكار وفهم التعابير الجديدة، في إطار لغة تنتمي إلى واقع ثقافي تحكمه قوانين ومبادئ تخص ذلك الواقع من جهة، وتعكس من جهة أخرى الخصائص العامة للفكر. والجدير بالذكر أن تشومسكي ليس هوأول من انتبه للطابع الخلاق للغة، بل هناك عدد كبير من العلماء قبله قد لاحظوا نفس الملاحظة وأدركوا نفس الحقيقة، أمثال همبوليت، وعلماء العرب.

وتتجلّى القدرة الإبداعية للغة، على صعيد الكلام الفردي العادي والحر، في المجال النفسي اللّغوي، وفي هذا الإطار يقول تشومسكي: « في صميم اهتمامات البحث الحالي نجد ما يمكن تسميته على صعيد الاستعمال الجاري بالجانب الخلاق في اللّغة يجري كلّ شيء كما لوأنّ الشّخص المتكلم، يخترع نوعا ما لغته كلما عبّر، أويعيد اكتشافها فور سماعها حوله وكأنه قد دمج مع مادته الفكرية الخاصة نظاما متماسكا من القواعد أوقانونا وراثيا(ونشدد على هذا)، يحدد بدوره النفسي الدلالي لمجموعة غير محدودة من الجمل الحقيقية المعبّرة أوالمسموعة. ويجري كل شيء بكلام آخر، كما لوانّه يتصرف بقواعد توليدية للغته الخاصة». (NOAM Chomsky, 1965: 14.)

وتقوم القدرة الإبداعية للّغة، على تجاوز الدلالات اللّغوية المغلّقة، والحواجز المفروضة، حتى ليبدوأن المتكلم يحاول الإفلات من ذلك القفص اللغوي الضيق، وينزع إلى قصدية للتعبير الواسع، المفتوح، غير المقيد، الذي يتماشى ومتطلبات الحياة المتجددة التي لا تعرف الرتابة، مما يوحي بأن اللغة هي كذلك عمل متجدد باستمرار، وكأن الإنسان يتعاطى اللغة من أجل التعبير عن فكره المتجدد الذي يحمله في نفسه عن المجتمع والعالم والتاريخ والإنسان واللّه، من خلال إنتاج الجمل غير المحدودة التي لم يسبق له أن لفظها أوسمعها من قبل.

إنّ المتكلم حسب هذا التوجه المنهجي الجديد لتشومسكي، هوالذي يفهم ويبدع اللغة ضمن الحياة الذهنية التي يوجهها العقل. ولهذا كانت محاولته رائدة في نقل دراسة اللّغة إلى ميادين تجاوزت حدود المناهج السابقة، حيث توجهت الأبحاث اللسانية بعد ذلك نحواكتشافات العلوم البيولوجية والنفسية حول العقل البشري ووظائفه، والتي لا يزال جزء كبير من هذه الوظائف غامضا ومجهولا إلى يومنا هذا ومتوقفا على نتائج البحث العلمي في المستقبل.

المراجع:

1- إدوارد سابير، اللّغة، ترجمة المنصف عاشور، الدار العربية للكتاب تونس، 1997، ج.2
2- عبد الجليل مرتاض، التحولات الجديدة للسانيات التاريخية، دار هومة، سنة.2002
3- إدوارد سابير، في أحمد مومن، اللسانيات النشأة والتطور، ديوان المطبوعات الجامعية، الجزائر، سنة.2002
4- أبوحيان التوحيدي، الإمتاع والمؤانسة، تقديم مختار نويوات، ج1، موفم للنشر، سنة 1989.
5- عن أحمد مومن، اللسانيات النشأة والتطور،
6- الطيب دبه، مبادئ اللسانيات البنوية، جمعية الأدب للأساتذة الباحثين، الجزائر، سنة2001.
7- مشال زكرياء، قضايا ألسنية تطبيقية، دار العلم للملايين، لبنان، ط 1، سنة .1993
8- عبد الرحمن حاج صالح، مجلة اللسانيات، العدد الأول، المجلد الثاني، سنة 1972.
9 - Noam Chomsky : *De quelques constantes de la théorie linguistique*, Diogène 1965
10 - Roland Breton, *Géographie des langues*, éditions CASBAH, Algérie.
11 - B.L. Whorf: *Language thought and reality, selected writings of Benjamin L .Eewhorf*, ed. JB caroll, MIT press 1956.
12- Reonald Bloomfield, *Le language*, Editions Payot.1970.